العلاقات التونسية المغاربية
في عهد حمودة باشا (1782- 1814م)

✍ أ. رزيقة محمدي
جامعة الجزائر-2-

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى تبيان مختلف العلاقات التي كانت بين ايالة تونس في عهد الباي حمودة باشا وباقي الايالات المغاربية إذا استثنينا بتدقيقنا في المصطلحات المغرب الاقصى، حيث كانت خارجة عن نطاق الدولة العثمانية

وقد ركزنا في دراستنا عن مختلف العلاقات التي كانت تجمع ايالة تونس بجاراتها. السياسية، الدبلوماسية وحتى التجارية سنلاحظ من خلال هذه العلاقات ان ايالة تونس استطاعت ان تكسب مكانة متميزة في الحوض الغربي للبحر المتوسط .

Résumée :

Cette étude vise a démontrer les différentes relations entre la régence Tunisienne a l'ère de Hamouda Bacha et les autres régences Maghrébines voisines.

Nous mettons le point sur ces rapports qui les réunissent ou les relations،aussi bien dans le domaine politique، Diplomatique، et même Économique commerciale.

Nous remarquons a la fin que la Régence de Tunis s'est forger une place importante

(Considérable) Dans le bassin ouest de la méditerranée.

مقدمة :

يعتبر الباي حمودة باشا من البايات الحسينيين الأوائل الذين أولَوا اهتماما كبيرا بالعلاقات الخارجية، سواء منها السياسية أو الدبلوماسية التي تتمثل في علاقات الصداقة وتبادل المراسلين والدبلوماسيين . ويدخل هذا ضمن رفع تحديات على المستوى الخارجي وإبراز مكانة الايالة في ساحة العلاقات الخارجية. وكيف كان باستطاعة الباي أن يبرز مدى إمكانية البلاد في حل مشاكلها وتحقيق انتصارات خارجية دون تدخل أجنبي .

ومن هنا نطرح الإشكال التالي، ما هي نوع العلاقات التي جمعت إيالة تونس بباقي الدول المغاربية؟ وكيف كان تأثيرها على السياسة الخارجية للبلاد؟

أ- العلاقات مع إيالة الجزائر:

أ-1- العلاقات السياسية: كان النزاع هو الطابع الغالب على العلاقات بين البلدين، والذي يعود جذوره إلى القرن 18م وكان ذلك حوالي سنة 1756م، بعد أن فرض داي الجزائر (بابا علي "بوصبع" 1754-1766م) على أبناء حسين بن علي مجموعة من الشروط مقابل تنصيبهم على عرش أجدادهم[1].

ومما زاد الأمور تعقيدا في عهد الباي حمودة تلك الوصية التي تركها له والده، وأكد له فيها على ضرورة المحافظة على العلاقات الودية مع إيالة الجزائر، وقد عبر له عن ذلك في قوله:« العشر والخراج الذي تقبضه أعط بعضه للجزائر، وبعضه لمصاريف المملكة وبعضه لتعيش به، وإياك أن تجعلهم أعداء ».[2]

عاش حمودة لمدة طويلة بين الأمَرَّين، بين الوصية التي أوصاه بها الأب، وبين رغبة حمودة في الخلاص من الضريبة السنوية التي كانت تقدم لايالة الجزائر. ونظرا لقوة هذه الأخيرة ومكانتها في البحر الأبيض المتوسط، فقد كانت أمور إيالة تونس تحت نظر جارتها الجزائر، وهذا ما لم يكن يحتمله الباي حمودة باشا، وكان يعتبره تدخلا في شؤونه الداخلية.

وهذا ما عبر عنه "ابن أبي الضياف" في قوله: "ولما توفي علي باي واستقل ابنه الباي أبو محمد حمودة باشا، أرادوا ابتداء الأمر معه من حيث انتهى أبوه، ولم يكن من أخلاقه احتمال الضيم... فعزم على حربهم ... والتفت إلى تحصين البلاد"[3].

وللقضاء على تدخل الحكام الجزائريين كما كان يتزعم الباي حمودة، والاستعداد لخوض حرب ضدهم، قام الباي ببناء مركز للتجسس على أحوال الجزائريين في سانية المرناقية والمعروف "بالقبة الحمراء"، حيث كان يستقبل فيه جواسيسه كل عشية ليطلعونه عن جديد الأخبار[4].

وفي نفس الوقت كان الباي يحاول أن يقوم بالتجسس على وكلاء إيالة الجزائر في تونس، فقد قام بمنح أحدهم جارية حسناء تَبين فيما بعد أنها كانت جاسوسة لدى حمودة باشا، إذ كانت تقوم باختلاس أوراق فيها مراسلاته مع إيالة الجزائر، وتعطيهم لأحدهم يقوم بنسخها في الحين، ثم تقوم بإرجاعها إلى مكانها، وبذلك كان حمودة باشا يطّلع على أسرار حكومة الجزائر[5].

حدثت أول مناوشة بين البلدين في عهد حمودة باشا سنة 1783م، بسبب الحادثة التي وقعت بين "**مريانو ستنكا" M.STINCA** وبين مبعوث إيالة الجزائر إلى تونس، حيث أظهروا اشمئزازا من أنواع الأكل التي قُدمت لهم، ولما سمع الباي بما حدث غضب كثيرا[6]. قرر الباي أن يمتنع منذ ذلك الحين عن بعث الهدية (الضريبة) السنوية إلى إيالة الجزائر، والتي كانت تحوي على 150 ألف جنيه، و20 جرة زيت، و600 جرة سمن، و50 جرة صابون، وشواشي وبرانس وحياك، وعطور[7]، وكان ذلك بداية لما يعرف بالقطيعة[8]، وبالرغم من الشكاوي التي قدمها داي الجزائر(محمد بن عثمان 1766-1791م) لدى الباب العالي، وطلب التوسط لإقناع الباي حمودة على ضرورة العدول عن رأيه إلا أنه رفض وقال: "انقطاع النذر بوفاة الناذر"[9] كما قال للمبعوث الذي أرسله الباب العالي:« إن أهل المملكة أَبَوا ذلك، وأنفوا منه، ورأوهُ ضريبة، ونجمعهم لتسمع الجواب». وعندما جمع في قصره وزراءه وأعيان الجند طلب منهم العدول عن قطع المدد عن الجزائر فقالوا له:« لا يقع ذلك أبدا، وإن كان لك زيت يخصّك فافعل به ما شئت، أما هذا الزيت فهو للبلاد ونظرٌ لك فيه إلا بالمصلحة، وأي مصلحة في إخراج شيء من بلادنا لقوم يرونه ضريبة علينا، والسلطان أولى منا بإعانة المسلمين[10]».

وما كان أمام داي الجزائر إلاّ إحداث قلاقل للباي، وذلك من خلال إرسال مبعوث رسمي من باي قسنطينة (صالح باي 1771-1792م)، يُطالبه تعويض الجزائريين الخسائر التي سببتها إحدى القبائل النازحة من تونس إلى الحدود الجزائرية -تبسة-، وما سببوه من تكاليف وأتعاب لأهالي المنطقة، وقدرت تلك التعويضات 40.000 سكوين[11]. وهدد صالح باي حمودة باشا بأن يُشن حربا عليه في جوان سنة 1787م، في حالة ما إذا رفض التعويض. مغتنما بذلك باي قسنطينة فرصة انشغال تونس بحربها مع البندقية[12]، لكن الباي رفض طلب صالح باي، وكاتب الداي محمد عثمان باشا واحتج إليه على مطالب صالح باي، لكن جواب الداي جاء مؤيدا لمطلب باي قسنطينة[13]. ولم يكن أمام الباي حمودة خيار آخر سوى الجنوح للسلم فقام بمكاتبة صالح باي، وأرسل إليه الهدايا، واتفق معه على تعويض مبلغ 25 ألف سكوين[14]. ورأى أن التضحية بكرامته أحسن من المجازفة والدخول في غمار الحرب مع إيالة الجزائر، في وقت كان لا يزال في حرب ضد البندقية[15]، اهتدى حمودة باشا إلى الاستعانة "بابن الأحرش"[16]، وتحريضه بالذهاب إلى الجزائر، وأن يحاول هناك إجراء انقلاب، بحجة أن الكثير من أهل إيالة الجزائر رافضيين لحكم الأتراك. وحمودة باشا من جهته يمُدّه بجميع الإمدادات، كما حاول الباي حمودة أيضا إيجاد الحلول بالطريقة السلمية مثلما فعل سنة 1801م، عندما اغتنم فرصة تواجد حمدان خوجة في تونس بعد عودته من القسطنطينية صُحبة خاله، فاشتكى له من التجاوزات التي كان يقوم بها وكيلا الجزائر وقسنطينة في تونس، آملا منه أن يوصل شكاوي الباي إلى داي الجزائر[17]. رفض الباي حمودة سنة 1806م أن يستمر في تطبيق الاتفاقيات القديمة[18]، وأمر بالكف نهائيا عن إرسال شحنات الزيت، وبعث للداي أحمد باشا(1805-1808م) في رسالة مكتوبة، فيها تصريح عن رفضه لذلك[19]، كما أمر برفع العلم التونسي عاليا بعد أن كان لا يتجاوز ارتفاع الذي كان يرفع على المباني والحصون الواقعة بين حدود الدولتين منتصف السارية، وطلب بتجهيز جيش لشن هجوم على إيالة الجزائر في حالة ما إذا بادر باي قسنطينة بداية مناوشات[20]. قام الباي سنة 1807م بإعلان الحرب وأرسل بجيشه الذي كان تحت قيادة سليمان كاهية وحاصروا قسنطينة لمدة شهر، وكانت أضرار الحرب جسيمة، وهذا ما دفع بالبعض من أهالي قسنطينة من الكتابة حول تلك الحرب، منها بعض هذه الأبيات :

حتى التوانسة راهم جاونا حاركين .... قومان والعساكر في مثل الجراد يا ريم
خرج محلة حمودة ذاك اللعين .... وابعث خليفة هاذوك الأزفات
علي وبن عباد وهاذوك الضايعين .... سليمان كاهية والجوانب
تزداد[21]

كانت كل الدلائل تؤكد على حتمية انتصار الجيش التونسي، بالرغم من المراسلات التي بعث بها داي الجزائر طالبا منه الجنوح للصلح لكن الباي أجابه بالرفض[22]، لكن حدث أن جاءت النتائج مخيبة لآمال التونسيين إذ واجهتهم صعوبات في تنفيذ عملياتهم العسكرية بسبب اصطدامهم بمقاومة عنيفة، زيادة على ذلك أن قبائل قسنطينة التي وعدت بالانضمام إلى الجيش التونسي، خانته فبدل أن تقف معه وقفت ضده.وما كان بيد القائد سليمان كاهية حيلة سوى الانسحاب[23]. ويصف" ابن أبي الضياف" ضعف سليمان قائلا:"كان مغفلا، بعيدا عن الحزم ضعيفا عن حمل ثقة العهدة، يتوقف في أقل الأمور على المشورة، وأضاع بذلك التوقف فرصا كثيرة "[24]. بلغ الباي الخبر فقام بإعداد العدة لحملة أخرى فجهز جيش جديد قوامه 18 ألف رجل، تحت قيادة يوسف صاحب الطابع الذي قرر أن يتحمل مسؤولية القيادة العليا للجيش وبعد أيام التقى الجمعان في شهر جويلية سنة 1807م في مكان يعرف « وادي سراط » بالقرب من مدينة الكاف[25]، وفي هذه الواقعة انتصر الجيش التونسي، ويصف "**السنوسي**" ذلك الانتصار بقوله:« فانتصر التونسيون انتصارا هائلا، واستولوا على سائر ما احتوت عليه محلة الجزيريين من العدد الحربية و غيرها، ورجعت المحلات المنصورة غانمة"[26]، وعلى إثر هذه الهزيمة طلب داي الجزائر خنق باي قسنطينة (حسين باي ولد صالح باي 1806-1807م)[27].

بدأت العلاقات بين الايالتين تميل نحو الاستقرار والسلم، بفعل شخصية الداي حاج علي باشا(1809-1815م) الذي كان أكثر ميولا إلى السلم،وكانت له الرغبة في تحسين العلاقات بين الطرفين .فقام بتقديم عارضة للباي حمودة باشا، مقترحا فيها عقد صلح نهائي، لكن شريطة أن تلتزم إيالة تونس بتعهدات الموافقة على إرسال شحنة الزيت التونسي إلى إيالة الجزائر مثلما جرت العادة. وليُظهر الباي حمودة حُسن نواياه ورغبته في إيقاف حالة الحرب بين البلدين، فقد وافق أن يُزود إيالة الجزائر بالزيت لكن شريطة أن لا يتخذ ذلك ذريعة لإلزامه بأي ضغوطات عليه[28].

أوضح الباي حمودة في رده أن موافقته لإرسال الزيت ما هو إلا مجرد الوفاء بالنذر الذي قطعه أجداده من قبل، وهو نذر ديني شخصي، مادام أن الزيت تستعمل لإنارة مصابيح مساجد الجزائر[29].

أمام كل تلك الاضطرابات والمشاحنات، لكن ذلك لم يمنع من وجود علاقات ودية كالضيافة والمعاملة الحسنة التي عُرفت من طرف الإيالتين، والتي كانت لها مساعي دبلوماسية. وخير دليل على ذلك الوثائق التي كان يُدون فيها تفاصيل الضيوف ومبعوثي إيالة الجزائر إلى تونس، حيث وجدنا فيها تفاصيل مدققة حول، تاريخ الضيافة، اسم الضيف أو الضيوف، مدة الإقامة، والهدايا التي كانت تؤخذ معهم بعد الرجوع إلى ايالة الجزائر[30].

ومن أمثلة تلك الضيافات،ضيافة المؤرخ "حمدان خوجة" وخاله في تونس بعد عودتهما من القسطنطينية للاستراحة هناك حيث اغتنم الباي فرصة تواجدهما، لتقديم شكوته ومحاولة جعله واسطة صلح بين الطرفين ولم يغادر إلاّ بعد أن قدم له الباي حمودة هدايا ثمينة[31].

إضافة إلى هذا كانت وفود تُرسل من الطرفين لعقد الصلح في فترات الحرب، والمعاملة اللائقة التي كان يعامل بها الوفود. وهذا ما بينته سفارة وفد صالح باي الجزائري إلى الباي حمودة باشا، أثناء خروج هذا الأخير في محلته التي تعرف "بمحلة البايات الخمس" أواخر شهر ديسمبر 1783م[32]. وفي ربيع 1784م، وأثناء تواجده في الكاف على القرب من حدود إيالة الجزائر، أرسل إليه صالح باي، خيولا ثمينة كهدية منه[33].والباي حمودة من جهته استقبل الوفد بكل حفاوة، وأعدّ لهم مأدبة غداء فاخرة[34]. وفي سنة 1808م أرسلت الجزائر وفدا للتفاوض مع الإيالة التونسية، ونجح الوفد في إبرام الصلح في شهر نوفمبر من نفس السنة[35].

كما نجد سفارة أخرى سنة 1812م والتي كانت فيها إيالة الجزائر السباقة إلى ذلك لتوقيع صلح الهدنة من جهة والوصول على بعض الامتيازات من جهة أخرى. وقد نجح الوفد في ذلك وتمكنت إيالة الجزائر من الحصول عل شحنات الزيت التي كانت تأتيها من طرف إيالة تونس. وإعادة الأمور إلى سابق عهدها.

أ-2- العلاقات التجارية: عادت العلاقات التجارية بين الطرفين بعد انقطاع طويل، وكان ذلك بفضل الصلح الذي وُقع سنة 1808م[36]، إذ نجد أن حمودة باشا كان يشجع التجارة مع إيالة الجزائر رغم المشاحنات التي كانت بين الطرفين.

كانت تتم التجارة بالدرجة الأولى، عن طريق القوافل التي كانت تختار وجهتها من الشرق الجزائري إلى تونس بسبب القرب الجغرافي[37] هذا من جهة، ومن جهة أخرى تمتع تونس بالموقع الجغرافي الهام الذي جعلها نقطة التقاء القوافل القادمة من المشرق والمغرب[38]، ومنه يتاح للتاجر البيع والشراء والتعرف على سلع الغير.

تنطلق القافلة التي كانت تسير يوميا في أغلب الأحيان من قسنطينة والوادي وورقلة إلى مختلف أسواق إيالة تونس، فالقافلة التي تأتي من قسنطينة تحتوي على 200 إلى300 بغل تكون محملة بالألبسة المطرزة والأحزمة والأقمشة ثم ترجع من تونس محملة بزرابي الشرق والأقمشة الشامية[39]. ويقول "مجيلMAGGIL "عن القوافل التي تأتي من قسنطينة أنها تمثل مصدر ربح كبير بالنسبة للتجار التونسيين، كما أنها تزود السوق التونسية بالمواد الناقصة[40].

كما كانت أسواق تونس تستقبل كميات كبير ة من البقر والأنعام، التي كان يُرسل بها من بايلك قسنطينة، بغرض بيعها هناك[41]. كما وجدت أيضا الشاشية التونسية رواجا كبيرا في الأسواق الجزائرية، إلى درجة أنه انحط نوع الشاشية الجزائرية، ولم تصبح مطلوبة من طرف الأهالي[42].

ونظرا لتطور العلاقات التجارية بين البلدين، وما كانت تُدّره من أرباح على الطرفين، فقد كان التجار يلعنون الحرب التي كانت قائمة ويتمنون توقفها بسبب ما خلفته من أضرار على العلاقات التجارية[43].

ب- العلاقات مع إيالة طرابلس الغرب:

ب-1- العلاقات السياسية: لم يهتم بايات الأسرة الحسينية الذين سبقوا حمودة باشا في الحكم، بشؤون طرابلس الغرب لأنهم كانوا يرون فيها الدولة الفقيرة والضعيفة المضطربة[44]، وتمثل بؤرة توتر حول من يحكمها[45]. ومع تولي حمودة الحكم أصبح الوضع في طرابلس يزداد تأزما بسبب الحروب التي أحدثتها الفتن

والصراع حول الحكم. وتخوفا من تأثر إيالة تونس بتلك الفتن، فقد كان مصطفى خوجة يشير إلى الباي في كثير من المناسبات « أن يرسل جندا لإطفائها قبل تطاير شررها إلى أطراف المملكة، لكنه لم يفعل، لأن همه إذ ذاك الجزائر"[46].

بعد مرور الوقت أصبح الباي يشعر بخطورة الوضع، خاصة بعد تدخل الجزائر في طرابلس، وقرر أن يخوض غمار التدخل في إطفاء فتنة طرابلس. لكن الجديد الذي حدث في ظل تلك الظروف، هو ظهور شخصية غريبة في طرابلس سنة 1793م، أرادت أن تغتنم فرصة تدهور الأوضاع هناك، ألا وهو علي برغل[47]، الذي ادعى أنه يحمل معه فرمانا سلطانيا يقضي بخلع علي القرمانلي، وتولية علي الأفندي(علي برغل)[48].

بعد مقاومة لم تدم طويلا اضطر الباشا علي (1754-1793م) الفرار إلى إيالة تونس، ثم لحق به ابناه أحمد ويوسف ومجموعة من أتباعه. ووصل في نهاية المطاف إلى مدينة صفاقس[49]، أين وجد ترحيبا كبيرا من طرف الباي حمودة ويقول "المسعودي": "...فتلاقهم بالترحاب وأوسع البر وأعظم القرى وبالغ في الإكرام وأقاموا تحت كنفه وعزه في بستان العبدلية" [50]

الغريب في هذه الأحداث، أنه لم نجد رد فعل وتدخل من طرف الباب العالي الذي لم يحرك ساكنا في ظل مجريات تلك الظروف. كأن الدولة العثمانية كانت ترى من تجربة علي برغل في طرابلس الفرصة الوحيدة التي يمكن من خلالها القضاء ومنع وراثية الحكم في طرابلس. إذن فقد كانت مستعدة أن تؤيد أية شخصية تريد خوض مغامرة الحكم في طرابلس[51].

إستطاع علي برغل تحقيق الكثير من الانتصارات في طرابلس، كما تمكن من فرض نفسه وولائه على جميع المناطق المجاورة، وبدون عراقيل وهذا ما كان ينبئ إلى بداية حقبة جديدة من الحكم، لا وجود فيها للأسرة القرمانلية[52].

بعد الانتصارات التي حققها علي برغل في طرابلس، بدأت تتجه أطماعه إلى تونس، حيث بدأ في إثارة الاضطرابات بين الجزائر وتونس، فكان يحرض أتباعه ضد البدو التونسيين الرحل. كما كان يؤلب التجار الجزائريين ضد باي تونس، من أجل خلق شقاق في العلاقات التجارية بين إيالتي تونس والجزائر[53]، كان علي برغل يكّن حقدا

كبيرا للباي حمودة سواء من أجل استضافته لآل قرمانلي، أو لأنه كان يخشى تدخله في شؤون طرابلس[54]. ونظرا لتلك التصرفات التي قام بها علي برغل، والتي لا توحي سوى إلى الغضب والحقد الشديد الذي كان يكنه حمودة باشا ضدّه، فقد كان ينتظر وجود فرصة للقضاء على تلك الشخصية التي سببت له القلاقل.

نظرا للانتصارات التي حققها علي برغل في طرابلس، بدأ في التخطيط للتوسع إلى إيالة تونس واسترجاع جزيرة جربة التي كانت في السابق تابعة لطرابلس. وفي يوم 30 سبتمبر 1794م قام علي برغل بتحضير جيش قوامه 500 مقاتل تحت قيادة قارة محمد. وطلب أن يكون الإبحار سرا، ليكون الهجوم على الجزيرة مباغتا. ونزلوا بها ليلا ولم يتلقوا أية مقاومة[55]. وعندما وصل لحمودة باشا خبر استيلاء علي برغل على الجزيرة غضب، واعتبر أن هذا العمل هو الإساءة إلى كرامة البلاد. فقام باستدعاء علي القرمانلي وولديه وقال لهم: « لقد أقدم حاكم طرابلس وبدون إذن من صاحب الجلالة السلطان على احتلال جربة، وقد استدعيتكم لإطلاعكم على ما حدث ولأبلغكم بعزمي على التعجيل بإعداد جيش لاستعادة الجزيرة. وأنا مصمم على عدم الوقوف بحملتي عند هذا الحد، بل أنني أريد بعد أن أستعيد جزيرتي،أن أنتزع طرابلس الغرب برمتها من علي برغل" [56].

قام الباي حمودة بتجهيز جيشين أحدهما بقيادة علي القرمانلي عن طريق البحر، والآخر بقيادة يوسف وأحمد القرمانلي عن طريق البر، ومصطفى خوجة القائد العام للجيش[57]. تمكن الجيش من استرجاع جزيرة جربة دون مقاومة إذ بمجرد أن سمع قارة محمد بقدوم الجيش التونسي حتى امتطى في السفينة ولاذ بالفرار[58]. وهكذا فإن علي برغل لم ينجح في احتلال جزيرة جربة التي اعتقد أنه من خلالها يستطيع احتلال تونس[59]، بعد استرجاع جزيرة جربة أصبح أمام الجيش مهمة ثانية أكثر صعوبة، وهي تحرير طرابلس وإعادة آل قرمانلي إلى سرير حكمهم.حيث وصل الجيش مساء يوم 16 جانفي 1795م، وفي اليوم التالي توزعت قوات الجيش بشكل منتظم وتم احتلال المنشية والساحل وتاجوراء دون مقاومة[60].

انتهت المعركة لصالح الجيش التونسي ولم يكن أمام علي برغل، سوى الهروب إذ نقل أمتعته والأموال التي نهبها في طرابلس إلى سفن وتوجه إلى أدرنة ومنها إلى مصر. بهذا تكون الحملة التي قام بها الجيش التونسي إلى طرابلس، كُللت بالنجاح حيث تمكنت أسرة آل

القرمانلي من استرجاع حكمها، وتمت مبايعة أحمد القرمانلي كَبَاشا على طرابلس في 19 جانفي 1795م. وكان ذلك بعد أن تنازل الأب علي باشا الحكم لابنه الأكبر، بعد أن أقنعه حمودة باي بأنه مسّن ولم يعد بقدرته تسيير أمور الدولة[62].

يظهر أنه كان للباي حمودة باشا مصالح للضغط على علي باشا في التنازل للعرش لابنه أحمد، وليس يوسف ذلك أن أحمد يلاءم التونسيين أكثر من أخيه يوسف. إذ يتميز بالطبع الهادئ، ومواقفه السياسية كانت شاهدة على أنه لا يكون في المستقبل سوى الرجل المسالم، وبذلك يضمن حمودة باشا السلم مع طرابلس[63]. وبهذا الانتصار الذي حققه جيش حمودة يقول "روسو": «وأدت هذه الحملة المحظوظة إلى الرفع من صيت حمودة باشا في نفوس أعراب إيالته "[64].

تزايدت أوصال المودة والصداقة بين حكام أسرة القرمانلي وبين حمودة باشا، وتوطدت أكثر بعد تاريخ 1794م (استيلاء علي برغل على عرش القرمانليين). فقد كان لطرابلس وكيل دائم في تونس والعكس[65]. ونظرا للعلاقة الطيبة التي كانت تجمع الإيالتين، فقد كانت تونس تستضيف الكثير من الضيوف من طرابلس، وكان يكرم في استضافتهم وهذه من عادة حمودة باشا الذي كان:«ولوعا بإكرام الوافدين عليه من ملوك الجهات"[66]. ويقدم لهم أفخم المأكل والمشرب إضافة إلى الهدايا التي تكون مرفوقة معهم بعد الرحيل.

والحديث عن العلاقات الدبلوماسية يعني الحديث عن تبادل السفارات، حيث كانت هناك وفود ترسل من الطرفين مع تبادل الهدايا، كسفارة سنة 1796م التي أرسل فيها الباي حمودة باشا بهدايا ثمينة إلى يوسف باشا، وفي سفارة أخرى سنة 1797م تلقى فيها حمودة باشا هدايا مماثلة من يوسف باشا [67].

ب-2- العلاقات التجارية: سمح القرب الجغرافي بين الإيالتين إلى وجود هجرة متبادلة، مما أدى إلى وجود عوامل قوية شدّت الشعبين ببعضهما البعض. ومن بين العلاقات التي كانت بين الدولتين العلاقات التجارية ومما زاد من متانتها وجود المنطقتين على نفس الخط التجاري[68]. أي كانتا بمثابة همزة وصل بين المشرق والمغرب فكل ما يأتي أو يذهب يمر على تونس وطرابلس. مثل هذه العلاقات هي التي جعلت وجود تجارة متبادلة بين البلدين، قبل الفترة التي نحن في صدد دراستها. وأهم تجارة

جمعت بين تونس وطرابلس، هي التجارة عن طريق القوافل التي أطلق عليها اسم قوافل غدامس التي كانت تأتي إلى تونس محملة بتبر الذهب وريش النعام والعبيد الأسود، وتعود محملة بالأقمشة بمختلف أنواعها، الحرير والجلود الحمراء التي تصنع بها الأحذية [69]. إضافة إلى هذا كانت تصدر تونس إلى طرابلس الحبوب وفي مقدمتها القمح [70]، أما تونس بدورها فتستورد من طرابلس الفُوّة [71] التي يقول عنها "**مجيل** MAGGIL "أنها تمتاز عن التي تُستورد من أزمير بالطراوة وانخفاض السعر[72].

والجدير بالإشارة أن طرابلس لم تكن تكترث بالتجارة، ولم تعطها القدر الكافي من الاهتمام، وهذا يعود حسب الأب رينال "RAYNAL " أن طرابلس بلد فقيرة عديمة الاستقرار بسبب الحروب والفتن التي كانت تحدث حول كرسي الحكم[73].

جـ- العلاقات مع المغرب الأقصى:

جـ -1- العلاقات السياسية والدبلوماسية: اتسمت العلاقة بين البلدين بالصداقة ومظاهر الاستقرار، فقد كانت ايالة تونس تحاول التقرب من المغرب وكسبها إلى جانبها. إذ حاول الباي حمودة أن يكوّن قطب مشترك، بين إيالتي تونس وطرابلس والمغرب وإبعاد إيالة الجزائر التي كان في حالة عداء معها[74]، وهي إستراتجية كان يتبعها حكام إيالة تونس بغية الحصول على التوازن مع إيالة الجزائر[75].

كانت المغرب من الدول التي تربطها علاقات طيبة مع إيالة تونس، والدليل على ذلك تبادل الزيارات والسفارات في مناسبات عديدة، وأهمها استضافة سلطان المغرب في تونس في العديد من المرات. وأولها كانت سنة 1791م، وهو العام الذي أدى فيه السلطان اليزيد ابن السلطان محمد فريضة الحج، وفي طريقه إلى هناك نزل في تونس للاستراحة، فلم يتردد الباي في إكرامه والتودد إليه وتوفير جميع وسائل الراحة له. ويُعبّر "ابن أبي الضياف" عن تفنن الباي حمودة في استقباله لسلطان المغرب فيما يلي:« ...وفي سنة 1206هـ اجتاز بالحاضرة مولانا اليزيد إبن السلطان مولانا محمد...، قاصدا أداء فريضة الحج، فاهتز الباي لمقدمه، وتفنن في إكرامه، وأنزله بقصره في بساتين منوبة، وأتاه مسلّما عليه، وطلب منه أن يزور محله ببارد فأسعفه، وبالغ في إكرامه لما بين الدولة الحسينية وهذه السلطنة الشريفة من المحبّة والوصلة، وبقي أياما يأتي الحاضرة، ويرجع إلى منزله بمنوبة، إلى أن تسنّى له السفر للحج"[76].

لقد بلغت علاقة التعاون بين الإيالتين، إلى تلبية السلطان سليمان طلب حمودة باشا، الذي أرسل إليه بالشيخ إبراهيم الرياحي، ليزوده بالحبوب. بسبب المسغبة التي وقعت سنة 1803-1804م،« فسرح لها لشراء من مملكته،وحملها في مراكب صنجقه"[77]. وأثناء عودة الشيخ إبراهيم، قام السلطان بإهدائه، بقدر وافر من النحاس، الذي استعمله الباي حمودة في صنع المدافع[78].

لم تتوقف العلاقات والبعثات الدبلوماسية بين البلدين، إذ يذكر "ابن أبي الضياف" أن الزيارات بقيت متبادلة، حتى في عهد السلطان سلامة الذي خلف أخاه السلطان يزيد بعد وفاته . وقد قام السلطان سلامة بزيارة الكثير من البلدان العربية[79]، فبعد مكوثه مدة في مصر زار تونس سنة 1811م. وقد حظِي السلطان بكرم وترحاب الباي كما عامل أسلافه من قَبل« ...وعظم .. و... أكرم نزله، ورتب له جراية كجراية أخيه، وعين له منزلا. وبقي بتونس معظما مكرما، مرموقا بما يجب لمقامه الديني والدنيوي،[80] وقد استضاف السلطان سلامة بدوره الشيخ إبراهيم الرياحي الذي زار المغرب، ويذكر "صاحب الإتحاف"، أن السلطان كان آية في الكرم والجود، إذ يذكر أنه عندما أراد الشيخ إبراهيم أن يغادر إلى تونس قال له السلطان: « لا أسرحك في حرّ الشمس،وألزمه أن يتغذى عنده ويُقَيل » . كما قام السلطان بإهداء الشيخ خاتما ثمينا كان بإصبعه[81] كعربون محبة وصداقة بينهما.

وأثناء رجوعه أنشده الشيخ قائلا:

ولما نزلنا في ظلال بيوتكم أمنّا ونلنا الخصب في زمن المحل
ولو لم يزد إحسانكم وجميلكم على البرّ من أهلي حسبتكم أهلي[82]

ج -2- العلاقات التجارية: بالإضافة إلى العلاقات السياسية والدبلوماسية الطيبة التي كانت تجمع البلدين، فإن العلاقات التجارية هي الأخرى كانت حاضرة بينهما، فقد كانت القوافل التجارية المغربية لها وجهة وطريق إلى إيالة تونس كل سنة. منها تلك القافلة التي تنطلق من مدينة فاس ويطلق عليها إسم" قافلة المغاربة". وقد كانت القوافل المغربية تذهب إلى تونس محملة بالنقود الذهبية والبرانس والنحاس، وتعود من تونس ومعها الكثير من المنتجات الشرقية منها الشواشي والحرير[83].

وخلاصة القول عن المبادلات التجارية بين البلدين، على العموم لم تكن نشطة إذ كانت بدرجة قليلة كما تقول "فلنزي"، وهذا راجع إلى الشعار الذي رفعه السلطان "سليمان" «لا حاجة لي بالتجارة"[84].

خـاتمة:

من خلال دراستنا لجوانب من علاقات ايالة تونس بالدول المغاربية خلال فترة حكم الباي حمودة باشا اتضح لنا أن هذا الأخير من اجل أن يفرض وجود ومكانة الايالة، لجأ في الكثير من الأحيان إلى استعمال القوة وتجلى ذلك في حروبه ضد الجزائر وطرابلس الغرب كوسيلة لتدعيم سياسته الخارجية وإبراز قوته. لاحظنا أن الباي رفع شعار تشجيع التجارة الخارجية، ونلمس ذلك من خلال تعدد علاقاته التجارية مع كل من الجزائر وطرابلس الغرب والمغرب الأقصى . وجدنا أنه إلى جانب التجارة الخارجية استطاع الباي أن يُنمي علاقاته الخارجية عن طريق الصداقة والعلاقات الدبلوماسية، وكسب ود الدول التي تجمعه معها مصالح .

نستنتج في الأخير أن تنوع العلاقات مع الدول المجاورة اكسب ايالة تونس مكانة مرموقة بينها، واستطاع أن يجعل منها ايالة ترقى إلى مصاف منافسة الدول القوية المتوسطية[85].

الهوامش:

[1]- احمد الشريف الزهار،**مذكرات الحاج احمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر**، تحقيق احمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974م، ص 85 .

[2]- نفسه .

[3]- احمد ابن أبي الضياف، **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس و عهد الأمان**، مراجعة و تعاريف أحمد الطويلي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1976م، ج3، ص ص51-53.

[4]- أبي عبد الله محمد الباجي المسعودي،**الخلاصة النقية في أمراء افريقية**، ط2، مطبعة بيكار وشركائه، تونس، 1916م، ص 136.

انظر أيضا : سليمان مصطفى زبيس، **آثار الدولة الحسينية بالقطر التونسي**، مطبعة سابي، تونس، 1955م، ص 39 .

[5]- رشاد الإمام، **سياسة حمودة باشا في تونس(1782-1814م)**، الشركة التونسية لفنون الرسم، تونس، 1979م، ص 384.

[6]- نفسه، ص 385.

[7]-Venture De Paradis، **Tunis et Alger au XVIII** ، Ed Sandibad، Paris،1983 ، p137.

[8])- حسين خوجة، **ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان**، تحقيق و تقديم الطاهر المعموري، الشركة التونسية لفنون الرسم، تونس،1975م، ص 128.

[9]- ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ص 99.

[10]- نفسه.

[11]- محمد صالح ابن العنتري، **فريدة منسية في حال دخول الترك بلد فسنطينة واستلائهم على اوطانها –تاريخ فسنطينة-**، مراجعة وتقديم وتعليق يحيى بوعزيز، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991م، ص63.

[12]- نفسه .

[13]- عمار بن خروف، **علاقات الجزائر السياسية مع تونس في عهد الدايات (1671-1830م)**، أطروحة لنيل درجة دكتوراه في التاريخ الحديث، جامعة دمشق،1996م، ص388.

[14]- العنتري، مصدر سابق، ص 63.

[15]- الفونص روسو، **الحوليات التونسية من من الفتح العربي حتى احتلال فرنسا للجزائر**، نقلها عن الفرنسية و نقحها و حققها وضبطها بأمهات المصادر التونسية و قدم لها بدراسة نقدية الدكتور محمد عبد الكريم الوافي،ط1، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، تونس، 1992م، ص 260.

[16]- أتى به حمودة إلى تونس وأحسن استضافته وترحابه، وكان يريد أن يجعله واسطة له للتخلص من حاكم إيالة الجزائر. أنظر: الزهار، مصدر سابق، ص 85.

[17]- حمدان بن عثمان خوجة، **المرآة**، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2006م، ص 127.

[18]- رسالة من "أرنولدو سولار"A.Soler" إلى دون "أرنولدو سيفالوس"A.Sevalos"، بتاريخ 12 جويلية 1808م، أنظر:

Gaston Loth، « **Arnoldo Soler chargé d'affaires d'espagne a Tunis et sa correspondance 1808-1810** » ،**R.T**،N°12، 1905 ، p309.

[19]- الزهار، مصدر سابق، ص96.

[20]- روسو، مرجع سابق، ص ص 277، 278.

[21]- اقتبسنا الأبيات من قصيدة طويلة، فيها وصف مفصل عن الحرب التي دارت بين أهالي تونس وأهالي قسنطينة، وما جرى فيها من دمار وخراب وجرحى وقتلى في تلك الحرب، وفي نهاية القصيدة يذكر صاحبها اسمه، وهو ابن علي بن الفكون. أنظر: العنتري، مصدر سابق، ص ص 143-146.

[22]- نفسه، ص 279.

[23]- روسو، مرجع سابق، ص 280.

[24]- مصدر سابق، ص 57.

[25]- العنتري، مصدر سابق، هامش 58، ص75.

[26]- مصدر سابق، ص 120.

[27]- عمر الركباني، **خلاصة التاريخ التونسي**، ط3، مطبعة النهضة، تونس، 1946م، ص 68.

(28)- روسو، مرجع سابق، ص300 .

[29]- نفسه.

[30]- الأرشيف الوطني التونسي، دفتر 275، ورقة:79، 80، 81،82.

[31]- خوجة، مصدر سابق، ص128.

[32]- سميت كذلك لأنه سافرت معه والدته واخوته ابي عمر وعثمان باي وأبي عبد الله محمد المأمون وابني عمه محمود وإسماعيل باي . انظر: ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ص 19.

[33]- بن خروف، مرجع سابق، ص388.

[34]- رشاد الإمام، **سياسة حمودة باشا في تونس(1782-1814م)**، الشركة التونسية لفنون الرسم، تونس، 1979م، ص 385.

[35]- روسو، مرجع سابق، ص288.

[36]- نفسه .

[37]- محمد العربي الزبيري، **التجارة الخارجية للشرق الجزائري**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1972م، ص 151.

[38]- الإمام، مرجع سابق، ص 299.

[39]- لوسات فلتزي، **المغرب العربي قبل احتلال الجزائر(1790-1830م)**، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، دار سراس للنشر، تونس،1946م، ص 76.

(40)- M. Thomas Maggill، **Nouveau voyage à Tunis**، traduit de l'anglais avec des notes par M .Ragueneau de la Chesnaye، Paris، 1815،p167 .

(41)- الأرشيف الوطني التونسي، دفتر 275، ورقة: 82. / ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ص ص 55،56.

(42)- De Paradis ،op.cit،p16.

(43)- Maggil،op.cit،p167.

(44)- J.J Marcel، **Discription de cette régence par le Dr Louis Frank** ،Ed Bouslama، Tunis ، sans date، p 168.

(45)- بروشين ايليتش نيكولاي،**تاريخ ليبيا منذ منتصف القرن السادس عشر حتى مطلع القرن العشرين**، ترجمة وتقديم عماد حاتم، ط2، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2001م، ص 142.

(46)- ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ص 30.

(47)- هو علج أصله من جورجيا، عُرف بعدة أسماء منها: علي بن آدم، علي الجزايرلي وأطلق عليه هذا الاسم بسبب طول مدة إقامته في الجزائر، حيث تقلد مرتبة وكيل الحرج العام في البحرية الجزائرية هناك، ويلقب أيضا بعلي برغل لأنه كان يطعم الجند البرغل بدل الأرز. والبرغل هو نوع من القمح يتم طبخه في الزيت أو الزبدة. أنظر: شارل فيرو، **الحوليات اللّيبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الايطالي**، نقلها عن الفرنسية وحققها بمصادرها العربية ووضع مقدمتها النقدية الدكتور محمد عبد الكريم الوافي، ط 3، منشورات جامعة قاريونس، ليبيا، 1994م، ص 353 . انظر ايضا: هامش 2 من نفس الصفحة.

(48)- نفسه، ص 353.

(49)- نفسه، ص 356.

(50)- أبي عبد الله محمد الباجي المسعودي، **الخلاصة النقية في امراء افريقية**، ط2، مطبعة بيكار وشركائه، تونس، 1916م، ص 135.

(51)- بروشين، مرجع سابق، ص 142.

(52)- فيرو، مرجع سابق، ص 356.

(53)- بروشين، مرجع سابق، ص 146.

(54)- الإمام، مرجع سابق، ص 371.

(55)- بروشين، مرجع سابق، ص 147.

[56]- فيرو، مرجع سابق، ص 366.

[57]- بروشين، مرجع سابق، ص 148.

[58]- فيرو، مرجع سابق، ص 361.

[59]- نفسه، ص 360.

[60]- نفسه، ص 361.

[61]- B. Roy، « **Arnoldo Soler chargé d'affaires d'espagne a Tunis et sa correspondance 1808-1810** » ،**R.T**،N°58 ،1906، p 286.

[62]- فيرو، مرجع سابق، ص 361-364.

[63]- بروشين، مرجع سابق، ص 149- 150.

[64]- روسو، مرجع سابق، ص 265.

[65]- الإمام، مرجع سابق، ص 378.

[66]- ابي عبد الله محمد بن عثمان السنوسي، **مسامرات الظريف بحسن التعريف**، تحقيق وتعليق محمد الشاذلي النيفر، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1994م، ج2، ص 121.

[67]- الإمام،مرجع سابق، ص 378.

[68]- عبيد منير،« **البحرية التجارية التونسية في ضوء مراسلات وكلاء وقناصل الباي**» ، **المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية**، عدد 21، سبتمبر 2000م، ص 143.

[69]- Maggill ، op.cit p p 165-166.

[70]- Daniel Panzac، **les corssaires barbaresques la fin d'une epopée (1800-1820)**، Ed Méditeranée،France، 1999، p122.

[71]- الفُوَّة بالإنجليزية :Madder هو اسم شائع لنبات من جنس روبيا(Rubia) ،ذي أزهار مصفرة، وطوله من30 إلى150 سم. يعطي جذر الفوة صباغ أحمر. وينبت في الأحراج والآجام (ج أجمة)، فهو لا يحتاج إلى رعاية بعد إزالة الأعشاب الضارة من حوله.

[72]- op.cit،p162.

[73]- Emerit، op.cit، ،p 168 .

[74]- Khalifa Chatter،**Dependence et mutations précoloniales la régence de Tunis(1815-1857)** ،P.U.T،1984، p 36.

[75]- بن خروف، مرجع سابق، ص 403.

[76]- ابن أبي الضياف، مصدر سابق، ص 29

[77]- نفسه، ص54.

[78]- يذكر ابن ابي الضياف انه في سنة 1803- 1804م وقع قحط في البلاد فارسل حمودة باشا الشيخ ابراهيم الرياحي الى المغرب الاقصى لجلب الميرة . وأثناء عودته أهداه سلطان المغرب سليمان حمولة وافرة من النحاس .انظر نفسه، ص 54.

[79]- يقال أن السلطان خرج من المغرب وجاب الكثير من البلدان إثر فقدانه لمنصبه في الحكم لأنه خُلع من طرف أهل فاس، وعينوا في مكانه أخاه المولى سليمان. أنظر: نفسه، ص 68.

[80]- نفسه، ص ص 68،69.

[81]- يذكر ابن أبي الضياف في إتحافه أن الشيخ رفض قبول الخاتم ووضعه بين يدي السلطان أثناء خروجه وقال له:« إن خاتمك شريف، والشريف لا يستعمل، وقد أجازني أخوك في الدنيا، وجائزتي منك الآخرة، وأنتم رجال الدنيا والآخرة... فلا تحرمني من جائزة الآخرة فهي خير وأبقى» ، أنظر: نفسه، ص 69.

[82]- نفسه، ص 69.

[83]- Emerit، op.cit، ،p 163.

(84)- مرجع سابق، ص93.

[85]- يمكن الرجوع إلى مقالنا المنشور في مجلة الحكمة حيث يُبرز علاقة ايالة تونس بالدول الأوربية .

لمزيد من المعلومات انظر: رزيقة محمدي، **جوانب من العلاقات التونسية الأوربية في عهد حمودة باشا**، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، عدد 29، السداسي الأول، 2015م .